الجذور النائمة للتطرف في الطفولة: متى يجب التدخل؟

ريتا مرهج

rita_merhej5@hotmail.com
الجامعة اللبنانية، بيروت، لبنان

ملخص

في ظل تفشي التعصب والتطرف في عالمنا اليوم، يطرح هذا البحث إشكالية تواجد التطرف في كل إنسان بغض النظر عن العوامل الظرفية المحيطة به، إذ أن الذهنية المتطرفة تنشأ ضمن عملية تكوين الصورة الذاتية والنظرة إلى الآخر في الطفولة المبكرة. يقدم البحث مراجعة منهجية لعدد من الأبحاث بين عامَي 1990 و2019 في موضوع نشأة التعصب والتطرف لدى الأطفال بين 2 و 10 أعوام من بلدان وثقافات مختلفة. اعتمد البحث على النظرية المعرفية-النمائية ونظرية الهوية الاجتماعية بهدف تحديد المسار الذي تسلكه الذهنية المتطرفة أثناء تكوين الهوية الاجتماعية عند الطفل. تبين هذه الأبحاث مدى اتفاق النظريتين على أهمية عملية المحاباة بمجموعة الانتماء في تعزيز تقدير الطفل الذاتي والجماعي، إنما هناك اختلاف في تفسير عملية المقارنة الاجتماعية التلقائية في هذه المرحلة، إذ أن تفكير الطفل الأنوي الذي يؤسس لبلورة الذهنية المتطرفة لا يتضمن بالضرورة العداء والكراهية تجاه "الآخر". يتطلب الانتقال من مرحلة المحاباة بمجموعة الانتماء الى مرحلة العداء ضد الآخر عدة شروط منها أن يكون التطرف من قواعد وسمات مجموعة الانتماء الضمنية. بناء على ذلك، يقدم البحث توصيات للتدخل المبكر لدرء التفكير المتطرف من خلال توفير فرص التواصل بين المجموعات المختلفة في الطفولة المبكرة، واعتماد التدريب على المفاهيم النقيضة للتطرف مثل التسامح وتقبل وتقدير التنوع البشري في صلب المناهج التعليمية لهذه الفترة العمرية.

الكلمات المفتاحية: التطرف؛ الطفولة؛ النمو المعرفي؛ الهوية الاجتماعية.

The Latent Roots of Extremism in Childhood: When to intervene?

Rita Merhej

rita_merhej5@hotmail.com
Lebanese University, Beirut, Lebanon

Abstract

In light of the prevalence of intolerance and extremism in our world today, this research argues that extremism is found in every human being, regardless of circumstantial factors, as the extremist mindset arises during the construction of the self-image and the perception of the other in early childhood. The research presents a systematic review of studies on prejudice between 1990 and 2019 in children between 2 and 10 years of age from different countries, and uses the cognitive-development theory and the theory of social identity to frame the developmental path of extremism. Results highlighted the extent to which the two theories agree on the importance of in-group favoritism in enhancing the child's and the group's self-esteem; they differ however in their interpretation of the naturally-occurring social comparison process, as the child's egocentric thinking does not necessarily include hatred towards the "other". The passage from in-group favoritism toward out-group prejudice requires several conditions, among which the implicit presence of prejudice in the affiliation group. Recommendations to ward off extremist thinking in early childhood include ensuring opportunities for contact between different groups and incorporating concepts such as tolerance and acceptance of human diversity in the educational curricula for this age period.

Keywords: extremism; childhood; cognitive development; social identity.

مقدمة

تركز معظم الأبحاث في التطرف على ما يسمى "الأرض الخصبة" لنشأة التطرف والتي تشمل العوامل الاجتماعية والثقافية والجيوسياسية والاقتصادية والدينية والتاريخية. تعتبر هذه الأبحاث أن العوامل الظرفية (الفقر، أساليب التدريس، الإنترنت، الدين، إلخ.) هي المسبب الرئيسي لنشأة وتطور التفكير المتطرف.

من ناحية أخرى، تلحظ بعض الأبحاث في علم النفس الاجتماعي أن التفكير المتطرف هو مسار طبيعي، غير استثنائي، في عملية تكوين الهوية الاجتماعية لدى الإنسان، وأن دراسة العوامل النفسية-المعرفية للتفكير المتطرف بشكل مستقل عن الظروف المحيطة هي أساسية لفهم الذهنية المتطرفة. هذا ولقد تساءل البعض عما إذا كان لدى الإنسان "الاعتيادي" ميل طبيعي للتطرف، وتم طرح فرضية تواجد التفكير المتطرف، ولو بدرجة متواضعة، لدى عامة الشعوب. تطرح هذه الدراسة السؤال التالي: هل الذهنية المتطرفة استثناء في نمط تفكير الفرد، أم هل أنها تمثل نمطا نمائيا طبيعيا لدى الإنسان الاعتيادي؟

تحديد مفهوم "التطرف"

في مراجعة للدراسات التي تناولت موضوع نشأة التفكير المتطرف في الطفولة، يلحظ عدم ورود مصطلح "التطرف"، واعتماد مصطلح "التعصب" وعبارات مثل "التحيز أو التعصب العرقي"، "المحاباة للمجموعة"، "التحيز أو التعصب ضد المجموعة الأخرى"، "التماهي العنصري" ، "تنميط الذات والتنميط المتبادل"، إلخ.، وهي المصطلحات ذاتها التي ترد في الأبحاث التي تعالج موضوع "التطرف" في فئات عمرية من المراهقين والراشدين حيث نلحظ تداخلا واضحا بين مصطلحات "التطرف" و"الراديكالية" و"التعصب"، و"التحيز" و"العصبية"، ... (Al Raffie, 2013, Bakker & Kessels, 2012; Bartlett and Miller, 2012 Coleman and Bartoli, 2015; Loza, 2007; Saucier et al., 2009; Stankov, Saucier, and Knežević, 2010; Trip et al., 2019)

أما الدراسات التي تناولت عينات من الأطفال، فهي تستخدم مصطلحات ك "التماهي العنصري" و"المحاباة لمجموعة الإنتماء" و"التمييز" و"التصنيف" و"التنميط" (Aboud, 2003; Aboud, 2005; Abrams et al., 2003; Abrams et al., 2007; Ajdukovic and Corkalo Biruski, 2008; Augoustinos and Rosewarne, 2001; Enesco et al., 2005; Guerrero, Enesco, & Lam, 2011; Monteiro, De Franca & Rodrigues, 2009; Nesdale et al., 2005; Nesdale et al., 2010; Pirchio et al., 2017)

ويتبين لنا أن هناك تقاطع كبير مع المصطلحات التي استخدمت في الأبحاث التي تناولت عينات من المراهقين والراشدين. يبرز الالتباس بين المصطلحات بشكل واضح في المراجع باللغة العربية التي عالجت موضوع التطرف، فهناك مثلا تداخل لمصطلحات "التعصب" و"الدوغماتية" و"العنصرية" (الشهري، 2012)، أو "التطرف" و"التعصب" (رضوان، 2010؛ بريك، 2010)، أو "التعصب" و"التصنيف" و"الانغلاق الذهني" (خربوش، 2010)، أو "التطرف" و"نوع من الانحراف" حسب "بوخميس" (2010)، أو "الاتجاهات الصلبة " و"النزعة نحو رفض الغريب وإقصائه" (السباعي، 2011، ص. 13)، أو "التصلب" و"الجمود" و"الرغبة بالتعامل مع كل شيء على أنه أبيض وأسود" (جابر، 2010، ص. 57). ولقد ترجم صالح (2010) كلمة "Prejudice" ب كلمة "التعصب" واستخدم مصطلح "التعصب" بشكل متداخل مع مصطلح "التطرف" فيتحدث عن التعصب الاجتماعي ("محدودية التزاوج القائم على أساس العرق أو الدين أو الطائفة") والتعصب المؤسسي ("احتكار مواقع اتخاذ القرار في السلطة لطائفة معينة") والتعصب السلطوي (الذي "يأخذ شكل الحروب التي تصل أحيانا إلى حد الإبادة") والتعصب العرقي (الذي "يعد أخطر أنواع التعصب وأكثرها أذى") (صالح، b2010، صص. 63-65). هذا ويستخدم حجازي (2005) جميع المصطلحات المستخدمة في الدراسات المذكورة أعلاه باستثناء مصطلح "التطرف"، فيتحدث عن "التعصب والتحيز وسرعة إطلاق الأحكام القطعية والأحكام المسبقة" (ص. 72)، وعن "التفكير وحيد الجانب والاتجاه" (ص. 84) و"التصلب الذهني" (ص. 70)، و"النمط النكوصي الطفلي" (ص. 120) و"النكوص إلى الأنوية" (ص. 72) و"الذوبان في الجماعة" (ص. 108) والتعصب المفرط لمعايير الجماعة وتقاليدها.

نستنتج من الملاحظات السابقة أنه بالرغم من أن تعريف مصطلح التطرف أمر معقد نتيجة التداخل الكبير بين عدة مصطلحات، إلا أن هناك درجة عالية من التقاطع بين الحقول المعجمية لكل الدراسات العربية والأنجليزية التي استعنا بها في هذه الدراسة. وفي مواجهة هذا التداخل المعجمي بين عدة مصطلحات، خلصنا إلى الاستنتاجات التالية:

- أن "التحيز" أو "التعصب" بالمعنى الذي أورده "ألبورت" (Allport, 1954) والذي استند عليه معظم الباحثين هو بمثابة الأرضية الخصبة لتطوير الذهنية المتطرفة لدى الإنسان، وذلك بسبب شمول كل مكونات التحيز أو التعصب ضمن مصطلح التطرف؛

- إن عدم استخدام مصطلح التطرف في الدراسات حول التحيز أو التعصب خلال مرحلة الطفولة قد يعود الى ارتباط مفهوم التطرف بأبعاد سياسية وفي الكثير من الأحيان بمعان متعلقة بالإرهاب، مما يجعله غير ملائم للطرح في إطار الطفولة.

إن الاستنتاجين السابقين يجيزان الاستعانة بالدراسات حول التعصب في فترة الطفولة لفهم نشأة التفكير المتطرف وذلك بصرف النظر عن تداخل معاني المصطلحات المستخدمة.

المسار النمائي للذهنية المتطرفة

دراسات في النظرية المعرفية-النمائية

استنادا إلى النظرية المعرفية-النمائية، تعتبر عبود (Aboud, 2005) أن التعصب لدى الأطفال الصغار يتجلى بإبداء المشاعر السلبية أو السلوك التمييزي العدائي تجاه أفراد المجموعة المختلفة عن مجموعة انتمائهم، وأن هذه المواقف هي نتيجة تفضيلهم التلقائي لكل من يشبههم ونبذهم التلقائي لكل من يختلف عنهم، أو ارتياحهم لما هو مألوف وخوفهم من اللامألوف (Nesdale, 2000). تضيف عبود أن هذه المواقف والسلوكيات المبكرة تتميز بدرجة عالية من عدم الثبات بسبب عدم نضوج نظم الأطفال المعرفية واعتمادهم على الملامح الحسية وليس على المواقف الاجتماعية المكتملة في تقييمهم للآخرين. ترتكز النظرية المعرفية-النمائية على مبادئ "جان بياجيه" لمراحل النمو الذهني عند الطفل. يعتبر بياجيه أن الطفل الصغير يعيش حالة من الأنوية المركزية التي تمنعه من تطوير نظرة موضوعية إلى الآخر، وإن تخطي هذه الأنوية يفرض اكتساب مبدأ التبادلية أو المعاملة بالمثل reciprocity وبلوغ درجة معينة من التفكير اللامركزي الدامج. ويعتبر بياجيه أن الأنوية لا تزول كليا بل هي تظهر مجددا في مراحل نمائية لاحقة، بخاصة في أوقات الشدة، ويطلق عليها اسم "المركزية الجماعية" sociocentrism، وهي حالة تتأثر بالمواقف والأقوال التي يتلقاها الطفل من أسرته ومحيطه (Piaget & Weil, 1951).

يشير كامرون وآخرون (Cameron et al., 2001) إلى أن مثول التعصب في الطفولة المبكرة (بدءا من العام الثالث) يعود إلى نظرية الطفل الخاصة بالعالم أن "ما يشبهني جيد وما لا يشبهني سيء"، وهي مبنية على عملية تصنيف الذات والآخر، وضرورية لفهم العالم في هذه المرحلة المبكرة من العمر (Cameron et al., 2001, p. 118). بينت دراسات كثيرة في موضوع التحيز العرقي أن الإدراك العرقي مثلا متواجد بشكل واضح لدى الأطفال الصغار في مرحلة ما قبل-المدرسة، وأن "المحاباة لمجموعة الانتماء" in-group favoristism تبدأ بالظهور منذ العام الثالث وتبلغ ذروتها في عمر الخمس سنوات، وتواكبها عملية نبذ الآخر (المجموعة الأخرى) التي تتفاقم مع اكتساب الأطفال للأنماط الاجتماعية social stereotypes المتعلقة بالمجموعات المختلفة، إلا أن نبذ الآخر "التعصب ضد الآخر" out-group prejudice يبدأ بالتدني في العام السابع أو الثامن وذلك نتيجة نمو المرونة الذهنية "اكتساب القدرة على تقييم ومساءلة وتحدي المعتقدات السائدة ومنها الأنماط الاجتماعية" (Aboud, 2003; Aboud, 2005; Abrams et al., 2003; Augoustinos & Rosewarne, 2001; Clark and Clark, 1939; Davis, Leman & Barrett, 2007; Enesco et al., 2005; Fitzroy and Rutland, 2010; Guerrero, Enesco & Lam, 2011; Levy et al., 2010)

أجرى أوغوستينوس و روزوارن" (Augoustinos & Rosewarne, 2001) دراسة على أطفال ينتمون الى الأكثرية الإثنية البيضاء في أستراليا وتتراوح أعمارهم بين الخمس والتسع سنوات، لمعرفة ما إذا كان الأطفال يميزون بين "الأنماط الاجتماعية" السائدة في أستراليا حيال "لون البشرة" (التحيز العرقي) من جهة، ومعتقداتهم الشخصية من جهة أخرى. بينت الدراسة أن مجموعة الأطفال بين الثماني والتسعة أعوام، على

عكس مجموعة الأطفال بين الخمس والست سنوات، يقيمون "الآخر" (ذو البشرة السوداء) بناء على معتقدات شخصية غير متطابقة مع الصورة الجماعية المنمطة للمجموعات العرقية الأخرى، وأنهم يدركون بشكل ملحوظ أن الصفات السلبية الموجهة ضد "الآخر" هي أنماط اجتماعية. يستنتج الباحثان أنه بينما يضخم الطفل الصغير (5 سنوات) أوجه الاختلاف بينه وبين الآخرين، فإن ابن التسع سنوات يصبح أكثر إدراكا لأوجه التشابه كما لأوجه التباين بين مجموعته والمجموعات الأخرى، مما يؤدي إلى تدن في درجة التعصب ضد الآخرين. تنسجم هذه المعطيات مع ما وصفه "بياجيه" في "مرحلة العمليات المادية" بين السبع والإثني عشرة عام من نمو الطفل العقلي حيث أنه مع اكتساب عملية "المحافظة" conservation يبلغ الطفل درجة أعلى من المرونة الذهنية التي تمكنه من استدراك إمكانية تواجد صفات متشابهة ومختلفة بين أفراد مجموعته والمجموعات الإثنية الأخرى، مما يفسر تدني درجة التعصب العرقي الإثني وانخفاض الاعتماد على الأنماط الاجتماعية الموجهة ضد المجموعة الأخرى (Nesdale, 2000) من ناحيتها، تشير عبود (Aboud, 2003) إلى صدارة "المحاباة لمجموعة الانتماء" على التعصب ضد الآخر (تتجلى الأولى في عمر الثلاث سنوات بينما لا يظهر الأخير قبل الخمس سنوات) إذ أن "المحاباة لمجموعة الانتماء" مرتبطة بعمليات نفسية-معرفية غير معقدة كالحاجة الغريزية للانتماء والتماثل الإثني والتصنيف الجماعي، بينما يتطلب التعصب ضد الآخر عمليات ذهنية أكثر تعقيدا مثل المقارنة الاجتماعية وملاحظة الاختلافات وترجمتها إلى عمليات تقييمية. وبما أن تفكير طفل الخامسة لا يزال مركزيا وأنويا ومبنيا عل اعتماد صفة واحدة لتقييم الآخر وهو غير قادر على استيعاب الصفات المتعددة للشيء الواحد ودمجها، ترسو مقارنته بالآخر على الصفة الغالبة للآخر (لون بشرته)، وبما أن مجموعته التي يتحابى بها هي المجموعة "الجيدة"، تصبح المجموعة الأخرى (لون البشرة المختلف) المجموعة "السيئة". تضيف عبود (Aboud, 2005) أن طفل الخامسة، مقارنة بطفل الثلاث سنوات، يصبح أكثر تمحورا على المجموعة من على ذاته مما يفسر اندفاعه لاستخدام نظرة انشطارية بين "الجيد" و"السيء" إلى العالم. يشير نيسدايل وفليسر (Nesdale & Flesser, 2001) إلى أنه ابتداء من عمر الخمس سنوات يدرك الأطفال الفروقات بين مجموعتهم والمجموعات الأخرى (يشمل ذلك المجموعة الإثنية، أو العرقية، أو أية مجموعة تكونت على أساس اعتباطي لأهداف بحثية بحتة كالمجموعة "السريعة" مقابل المجموعة "البطيئة" في مسابقة ركض مبتكرة، أو مجموعة "الرسامين الجيدين" في مقابل "الرسامين الممتازين" في مباراة رسم مبتكرة)، وأنهم يقومون بعملية مقارنة لمجموعتهم مع المجموعات الأخرى في هذه المرحلة العمرية المبكرة.

يعتبر نيسدايل وآخرون (Nesdale et al., 2005) أن حاجة الطفل للانتماء إلى مجموعة معينة والتماثل بها تفرض على الطفل الالتزام بمبادئ وأعراف تلك المجموعة ومنها ما يتعلق بشكل وتوجه نظرته إلى المجموعات الأخرى وعلاقته بها (تقبل الآخر أو نبذه): تفيد الأبحاث أنه ابتداء من العام الخامس، يعمد الطفل إلى نبذ طفل آخر من مجموعته إذا خالف هذا الطفل مبادئ وتوقعات مجموعة الانتماء. من جهة أخرى، يبدي الأطفال بين السبعة والتسعة أعوام المواقف الإيجابية تجاه أطفال المجموعة الأخرى إذا كانت مجموعة الانتماء تدعو إلى التقبل والاندماج بعكس ما إذا كانت تدعو إلى النبذ والتفرقة (Nesdale et al., 2005).

تساءل إينيسكو وآخرون" (Enesco et al., 2005) عما إذا كان التدني في المواقف المتعصبة ضد الآخرين (وبخاصة الأقليات العرقية والإثنية) بدءا من العام الثامن ناتج عن (1) بزوغ نوع جديد من القيم الأخلاقية لدى ابن الثمان سنوات، أو (2) إدراك الطفل للسلوكيات المرغوبة وغير المرغوبة اجتماعيا مع نضوج قدراته العقلية، أو (3) قدرة الطفل على إخفاء مواقفه المتعصبة الباطنية مع إدراكه أن التعصب غير مرغوب اجتماعيا.

في ظل التغير الديموغرافي والنسيج العرقي المتنوع الحاصل في العالم اليوم نتيجة تدفق المهاجرين واللاجئين إلى الغرب، يشير بحث ل غيريرو وآخرون (Guerrero, Enesco & Lam, 2011) أجري على أطفال من الأكثرية الإثنية الإسبانية البيضاء تتراوح أعمارهم بين الثلاثة والخمسة أعوام أن الميل إلى تصنيف الآخرين حسب عرقهم (لون بشرتهم) موجود ابتداء من العام الثالث، كما إدراك الهوية العرقية وتفضيل الطفل لمجموعته على أفراد المجموعات العرقية الأخرى، وكلاهما يزدادان مع التقدم بالعمر ونمو القدرات الذهنية (من ترتيب وتصنيف ومطابقة ومقارنة) بشكل ملحوظ، غير أن التعصب ضد "الآخر" (ذوي البشرة السوداء) كان مرتبطا فقط بنمو القدرات الذهنية وليس بعمر الطفل (Guerrero et al., 2011). إن الظهور المبكر للإدراك والتصنيف العرقي في طفل اليوم، مقارنة بطفل الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي، يؤيد

الفرضية المعرفية-الاجتماعية cognitive-social hypothesis بأن أطفال اليوم أصبحوا أكثر إدراكا للتغيرات في النسيج الاجتماعي (العرقي) المحيط بهم. يبدو ذلك واضحا في مراجعة للأبحاث التي أجريت حول موضوع التعصب لدى الأطفال في إسبانيا في المرحلة الممتدة بين عامي 1994 و 1998، أي ما قبل تدفق المهاجرين واللاجئين حيث لم يختبر الأطفال فرص الاحتكاك مع المجموعات الإثنية والعرقية الأخرى في المدارس الإسبانية (Guerrero et al., 2011). تشير هذه الأبحاث إلى أنه نادرا ما لجأ الأطفال دون الست سنوات إلى استخدام معايير عرقية لتصنيف "الآخرين" ضمن أزواج أو مجموعات أو أسر، أو في إجاباتهم على أسئلة حول هويتهم العرقية، غير أنه، وبعكس ما تتوقعه النظرية المعرفية-النمائية، بدأت المعايير العرقية في الظهور (وصفا وتصنيفا) بشكل ملحوظ ابتداء من عمر الثمان سنوات. هذا وبالرغم من تأخر أو بطء ظهور المعالم التمييزية العرقية عند الأطفال، يلحظ الباحثون أن الدلالات العفوية على تفضيل الأشخاص ذوي البشرة البيضاء (مجموعة الانتماء) كانت واضحة لدى جميع الأطفال ابتداء من عمر الأربع سنوات. تكمن أهمية هذه المعطيات من مرحلة تاريخية سابقة في الإشارة إلى (1) أن التعصب تجاه ذوي العرق الآخر في المجتمعات غير المختلطة عرقيا لا يتجلى في عمر مبكر (كما هو حاصل في المجتمعات العرقية المختلطة في الحاضر)، إلا أنه لا يلبث أن يظهر في مرحلة عمرية لاحقة، و(2) أن "المحاباة للمجموعة" (مجموعة الانتماء العرقي الأبيض) تتجلى في عمر مبكر وذلك في غياب الصيغة العرقية المختلطة لبيئة الطفل.

تشير دراسة ل إينيسكو وآخرون (Enesco et al., 2005) أجريت على عينة من الطلاب الإسبان في مدارس رسمية في مدريد، وهي تتميز بخليط إثني كبير، تتراوح أعمارهم بين 7 و12 عاما إلى مستوى عال من المعرفة عبر كل الفئات العمرية للأنماط الاجتماعية المتعلقة بكل من مجموعات الأقليات الإثنية في إسبانيا (المهاجرين من أميركا اللاتينية والصين والغجر) وبخاصة الأنماط الاجتماعية السلبية ضد الغجر. تأييدا للنظرية المعرفية-النمائية، بينت الدراسة أنه، مقارنة بالطلاب في السابعة من العمر، بدا الطلاب في العاشرة من العمر وما فوق أقل تأييدا لهذه الأنماط الاجتماعية الموجهة ضد كل الأقليات الإثنية إجمالا وأبدوا استياءهم من التحيز والتمييز والوصمة حيال مجموعة الغجر بشكل خاص. وفي دراسة حول التحيز العرقي لدى مجموعة من الأطفال البريطانيين من أصل إنكليزي تجاه مجموعات بريطانية من أصل أفريقي وآسيوي، أشار روتلاند وآخرون (Rutland et al., 2005) إلى أن أطفال البيئة المتجانسة عرقيا والتي تتراوح أعمارهم بين الثلاث والخمس سنوات أبدوا نسبة أعلى من التحيز العرقي تجاه المجموعات العرقية الأخرى، مقارنة بأطفال البيئة المختلطة عرقيا ومن الفئة العمرية ذاتها والذين أبدوا بدورهم نسبة أدنى من التعصب الإيجابي لمجموعة الانتماء ونسبة أدنى من التعصب السلبي تجاه المجموعات العرقية الأخرى. وأضاف روتلاند وآخرون (Rutland et al., 2005) أن هذه المرحلة العمرية المبكرة هي أساسية لتطوير مواقف الطفل البين-جماعية ومنها التعصب والتنميط العرقي، وإن هذه المواقف لا تكتسب فقط من الأهل، بل أنها تتأثر بعوامل خارجية كالمحيط المدرسي للطفل، وأن فرص الاحتكاك بالأعراق الأخرى المتاحة في بيئة الطفل المدرسية من شأنها تخفيف نسبة التعصب العرقي لدى الأطفال الصغار.

دراسات في نظرية الهوية الإجتماعية

يقول ألبورت (Allport, 1954): "أننا نعيش في المجموعة، من المجموعة وللمجموعة، وأن العداء للمجموعات الأخرى يساعد في تقوية شعورنا بالانتماء لمجموعتنا لكنه غير إلزامي"(Allport, 1954, p. 42) . وفي مراجعة شاملة لعدد كبير من الدراسات في موضوع التعصب، استنتجت بروور (Brewer, 1979) أنه يجب التمييز بين النمط النمائي للانحياز لمجموعة الانتماء (المحاباة لمجموعة الانتماء) والنمط النمائي للتعصب ضد الآخر؛ إذ أن (1) ازدياد الانحياز لمجموعة الانتماء مرتبط بالتعلق بمجموعة الانتماء وتفضيلها على المجموعات الأخرى بنسبة أعلى من ارتباطه بالتعصب ضد المجموعة (أو المجموعات) الأخرى، (2) أن الانحياز لمجموعة الانتماء يحصل بغض النظر عن تواجد أي نوع من المنافسة مع مجموعة أخرى، (3) أن أوجه الشبه بين أفراد المجموعة الواحدة من شأنها زيادة تجاذب الإنسان لمجموعته وتعلقه بها وذلك حتى في غياب عنصر المقارنة بمجموعة أخرى، و(4) أن ازدياد الانحياز لمجموعة الانتماء مرتبط بتعزيز التقييم الإيجابي للمجموعة في ظل ثبات نسبي لتقييم المجموعة الأخرى. تشير بروور إلى أنه بالرغم من العلاقة القوية بين المحاباة لمجموعة الانتماء والإدراك أنها أفضل من المجموعات الأخرى، إلا أن هذه العلاقة غير مرتبطة بتحقير المجموعة الأخرى (التعصب ضد الآخر). تضيف بروور (1999) أنه بعيدا عن دراسات "المختبر"، فإن "قدر الوطنية والاعتزاز

بالوطن مستقل عن قدر الكراهية والعداء تجاه الأوطان الأخرى من الناحية المعنوية أو من ناحية التجربة والخبرة (Brewer, 1999, p. 432). ترى بروور (Brewer, 2001, p. 28) أن مجموعة الانتماء تتكون لأسباب مستقلة عن المنافسة أو الصراع مع المجموعة (أو المجموعات) الأخرى، إنما لكل مجموعة انتماء وظائفها النفسية والاجتماعية (المحاباة والولاء) التي توفر الظروف اللازمة لنشأة الصراع مع المجموعة (أو المجموعات) الأخرى، لكن العداء ضد المجموعة الأخرى ليس هو امتداد للولاء لمجموعة الانتماء ولا هو تطور حتمي (Brewer, 2001, p. 35). فالانحياز الإيجابي لمجموعة الانتماء هو، حسب بروور، ظاهرة كونية متأصلة في عملية تكوين المجموعة بينما يتطلب العداء أو التعصب ضد المجموعات الأخرى ظروف بنيوية وتحفيزية اجتماعية إضافية غير متأصلة في عملية تكوين المجموعة بحد ذاتها. هذا وتتحدث بروور (Brewer, 2001, p. 19) عن سلسلة منتظمة ومتدرجة من العلاقات المحتملة بين تكوين مجموعة الانتماء والسلوك البين-جماعي حيث أن كل عنصر من السلسلة يوفر شرطا لازما لكن غير كاف لحدوث العنصر اللاحق: تبدأ السلسلة ب (1) التصنيف الاجتماعي (حيث يصنف الفرد ذاته والآخرين ضمن فئات اجتماعية محددة)، يليها (2) التقييم الإيجابي لمجموعة الانتماء من دون أي مشاعر سلبية تجاه المجموعات الأخرى، ثم (3) المقارنة التنافسية مع المجموعات الأخرى (حيث يزداد التقييم الإيجابي لمجموعة الانتماء وتعتبر أفضل من المجموعات الأخرى)، وصولا إلى (4) نشأة العداء والكراهية تجاه المجموعات (أو المجموعة) الأخرى، ويحدث العنصر الرابع فقط في حال تواجد الخصومة والعداوة بين مجموعة الانتماء والمجموعات الأخرى.

تأييدا لطرح بروور، لاحظ كامرون وآخرون (2001) في نقدهم لعدد من الأبحاث في التعصب لدى الأطفال التباسا بين مفهومي "المحاباة لمجموعة الانتماء" و"التعصب ضد المجموعة الأخرى"، إذ (1) أنه من غير الواضح، من الناحية المنهجية والإجرائية لهذه الدراسات، ما إذا كان قياس المفهوم الأول (المحاباة لمجموعة الانتماء) مستقل عن قياس المفهوم الثاني (التعصب ضد المجموعة الأخرى)، و (2) أن وسائل القياس التي تم استخدامها كما طريقة تطبيقها على عينات الأطفال من الفئات العمرية المختلفة فرضت على الطفل اختيار ردود محددة (منحازة) من قبل الباحثين ولم تعطه الفرصة للاستجابة بطريقة خارج إطار الخيارات المتوفرة. وبناء على هذه المآخذ الإجرائية، يرى كامرون وآخرون (2001) أن ما يعرف بنظرية الأطفال الخاصة بالعالم ("إن ما يشبهني جيد وما لا يشبهني سيء") قد لا تصح في مرحلة الطفولة المبكرة إذ أنه لا يجوز الخلط بين مفهومي المحاباة لمجموعة الانتماء والتعصب ضد المجموعة الأخرى، فحتى لو كان "ما يشبهني جيد"، هذا لا يعني بالضرورة أن "ما لا يشبهني سيء". في تحليل شبيه لطرح بروور، يوضح كامرون وآخرون" (ص. 119) أن الانحياز لمجموعة الانتماء والتعصب ضد الآخر هما مفهومين متميزين عن بعضهما البعض ذات أسباب وعواقب مختلفة، وأن التعصب ضد الآخر غير إلزامي خلال مرحلة النمو المبكرة ولا هو جزء من النمو المعرفي الطبيعي أو لعملية التنميط الاجتماعي. يرى كل من بروور وكامرون وآخرون أن التعصب ضد الآخر ينشأ نتيجة التفاعل بين التغيرات النمائية الشخصية والعوامل الاجتماعية المحيطة بالطفل التي تؤدي إلى اعتبار مجموعة الانتماء "جيدة" والمجموعة الأخرى "سيئة"، وتشمل هذه العوامل تأثير الوالدين العنصريين أو ما يصوره الإعلام أو وجود حالة نزاع مع دولة عدوة.

يؤكد روتلاند" (Rutland, 1999) على مرونة التفكير عند الأطفال بحيث أن تصنيفهم لذاتهم أو للآخرين لا يعتمد على نموهم الفكري بل على مدى تكيفهم مع بيئتهم الاجتماعية وبيئة المقارنة (الآخرون). في دراسة أجراها على مجموعة من الأولاد البريطانيين تتراوح أعمارهم بين 6 و16 سنة، بين روتلاند أن الانحياز الوطني ضد المجموعات الأخرى (من خلال تقييم الأولاد لمجموعة من الصور الفوتوغرافية لوجوه قيل لهم أنها من جنسيات مختلفة: بريطاني، أسترالي، أميركي، ألماني وروسي) لدى الأطفال دون العشر سنوات لم يكن ملحوظا تجاه أي من المجموعات الأخرى. كذلك لم تكن هناك مستويات ملحوظة من "المحاباة لمجموعة الانتماء" ("ماذا يعني لك أن تكون بريطانيا؟") في هذه المرحلة العمرية، إذ أتت أجوبة الأطفال على شكل "أنني أتكلم الإنكليزية" أو "أصدقائي يعيشون في إنكلترا". إلا أنه بدءا من العام الثاني عشر، ظهرت بوادر المقارنة الاجتماعية في "المحاباة لمجموعة الانتماء" ("لدينا أفضل جيش في العالم" أو "انتصرنا على ألمانيا في الحرب العالمية الثانية" أو "إن فريق كرة القدم الإنكليزي فاز في مباراة كأس العالم"). بشكل واضح إضافة إلى التعصب ضد المجموعات الأخرى وبشكل ملحوظ تجاه ألمانيا (بخاصة بين 14 و16 سنة). يضيف روتلاند أن التعصب ضد الألمان أكثر من غيرهم من المجموعات الأخرى في تلك المرحلة العمرية يعود إلى العوامل الاجتماعية والثقافية المحيطة (مثل تصوير الألماني-العدو التقليدي في الكتب والأفلام السينمائية والبرامج

التلفزيونية البريطانية، إضافة إلى التركيز على موضوع الحرب العالمية الثانية في مادة التاريخ خلال المرحلة الثانوية من التعليم والتي تتطابق مع عمر الأولاد في العينة).

من جهتها، تناولت دراسة بينيت وآخرون (Bennett et al., 2004) أن مجموعة أطفال في عمر الست سنوات من خمسة بلدان (بريطانيا، روسيا، جورجيا، أوكرانيا والأذربيجان) لمعرفة ما إذا كانت "المحاباة لمجموعة الانتماء" (بلد الجنسية) مستقلة عن أو مرتبطة بالتعصب ضد الآخر (البلدان الأخرى): ظهرت "المحاباة لمجموعة الانتماء" بشكل واضح لدى أطفال كل من الجنسيات الخمسة (عبر استخدام كلمات إيجابية لوصف مجموعة الانتماء، مثل "نظيف، ودود، ذكي، نشيط، سعيد، صادق")، وكانت المواقف تجاه المجموعات الأخرى بمجملها حيادية، ولم تشر النتائج إلى أي رفض لمنح صفات إيجابية للمجموعة الأخرى لدى أي من الأطفال من البلدان الخمسة، علما أن مجموع الصفات السلبية ("وسخ، معاد، غبي، كسول، حزين، كاذب") الموجهة لمجموعة الانتماء كان أدنى بشكل ملحوظ من مجموع الصفات السلبية الموجهة ضد المجموعات الأخرى. يخلص بينيت وآخرون بالقول (1) أن "المحاباة لمجموعة الانتماء" لا تترافق بكراهية للمجموعات الأخرى و (2) أنها قد ترتبط بمشاعر أقل مؤاتاة لبعض المجموعات وليس كل المجموعات (مثلا، أبدى الطفل البريطاني مواقف أكثر سلبية تجاه الألمان مقارنة بالفرنسيين والإسبانيين والإيطاليين ؛ كذلك أبدى الطفل الأوكراني مواقف أكثر سلبية تجاه الجورجيين مقارنة بالأميركيين، إلخ).

توصل بوكر وآخرون" (Pauker et al., 2010) إلى استنتاجات مشابهة في دراستهم لاكتساب التنميط الإثني لدى ثلاث مجموعات من الأطفال الأميركيين من أصول إثنية مختلفة (أميريكي-أوروبي، أميركي-أفريقي وأميريكي-آسيوي) تتراوح أعمارهم بين 3 و10 سنوات: مستخدمين 24 صورة لأزواج من الفتيان (أوروبي-أوروبي، أوروبي-أفريقي، أوروبي آسيوي، أفريقي-أفريقي، أفريقي أوروبي، أفريقي-آسيوي، إلخ). طلب الباحثون من الأطفال اختيار صورة الفتى التي يتطابق مع كل من السلوكيات المطروحة عليهم، منها ما هو سلبي (يسرق من الآخرين، يعتدي على الآخرين، يفشل في مدرسته، إلخ.)، ومنها ما هو إيجابي (يبرع في كرة السلة، يبرع في الرياضيات، يجتهد في عمله، إلخ.)، ومنها ما هو حيادي (يحب اللعب مع الحيوانات، يحب الاستماع إلى الروايات، إلخ.). أشارت نتائج الدراسة إلى أن التنميط الإثني (السلبي والإيجابي معا) يتزايد مع التقدم بالعمر وبدلالة إحصائية عالية للتنميط الموجه للمجموعة الإثنية الأخرى مقارنة بالتنميط الموجه لمجموعة الانتماء، وأن التنميط الموجه للمجموعة الإثنية الأخرى كان ذو دلالة إحصائية أكبر لدى الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 7 و10 سنوات مقارنة بالأصغر سنا (بين 3 و6 سنوات)، علما أن التنميط الإثني تجاه مجموعة الانتماء لم يبد أية دلالة إحصائية حسب عمر الأولاد.

في دراسة للمواقف العنصرية-العرقية الضمنية (اللاإرادية والنابعة من اللاوعي) للأطفال أجريت على 359 طفل ذوي البشرة البيضاء وتتراوح أعمارهم بين 5 و12 سنة في مدينة "تورونتو" الكندية، بينت الباحثتان وليامز و ستيل (Williams & Steele, 2017) أنه خلافا للمجموعة الأكبر سنا (بين 9 و12 سنة)، أبدى أطفال المجموعة الأصغر سنا (بين 5 و8 سنوات) ردودا إيجابية تلقائية تجاه نماذج صورية لمجموعة انتمائهم العرقي. وقد يعود ذلك إلى (1) الأنوية و(2) الاعتماد على العمليات الحسية (لون البشرة) لتنظيم العالم وتصنيف الآخر، مقارنة بالفئة العمرية الأكبر. من الجدير ذكره هو أن مثل هذا الاختبار لا يطلب مسبقا من المشاركين القيام بأي عملية تصنيف عرقي للنماذج المعروضة وأن ما يتم اختباره هو ردة فعل المشارك العفوية للنماذج الصورية العرقية. من جهة أخرى، بينت نتائج هذه الدراسة أن ما من طفل، في أي من المجموعتين العمريتين، أبدى تعصبا عرقيا سلبيا بشكل تلقائي تجاه النماذج الصورية للمجموعة العرقية الأخرى، مما يؤكد أن لمحاباة لمجموعة الانتماء (ذوي البشرة البيضاء) والتعصب ضد المجموعة العرقية الأخرى (ذوي البشرة السوداء) مسارين نمائيين مختلفين ومستقلين عن بعضهما البعض.

رأى باريت و أوبنهايمر (Barrett & Oppenheimer, 2011) أن مواقف الطفل الوطنية (تجاه وطنه الأم وتجاه الأوطان الأخرى) تختلف من بيئة إلى أخرى، ففي مراجعتهما لعدد من الدراسات حول تعصب الأطفال في بلدان شهدت و/أو لا تزال تشهد نزاعات مسلحة مع دول أخرى كإقليم الباسك، البوسنة، شمالي وجنوبي قبرص، إيرلندا الشمالية وفلسطين المحتلة، يشير الباحثان إلى أن المواقف السلبية والتحقيرية تجاه "الآخر-العدو" تبرز في عمر مبكر جدا، أي بدءا من عمر السنتين الى جانب مشاعر الاعتزاز والمحاباة للوطن الأم (مجموعة الانتماء) وتزداد حدة مع تقدم الطفل بالسن. في الإطار ذاته وفي دراسة حول التنميط الاجتماعي على مجموعة كبيرة من الأولاد تتراوح أعمارهم بين 8 و 14 سنة وينتمون إلى ثلاث مجموعات إثنية مختلفة (فلسطينيون، إسرائيليون يهود وإسرائيليون عرب)، استخدم نيوا وآخرون" (Niwa et al., 2016) تقنية

المقابلات الشخصية مع كل من الأولاد لاستقصاء ارائهم (بالتعبير عبر مقياس "ليكرت" عن درجة موافقتهم على أو رفضهم لقائمة من البنود الوصفية) حول المجموعة "الأخرى" (أي الفلسطينيين للأولاد الإسرائيليين اليهود، والإسرائيليين اليهود للأولاد الفلسطينيين والإسرائيليين العرب). بينت نتائج الدراسة أن الأنماط الاجتماعية السلبية تجاه الآخر (العدو) وعملية تحقيره تزداد مع تقدم الأولاد بالسن لدى الأولاد الإسرائيليين اليهود (تجاه الفلسطينيين) ولدى الأولاد الفلسطينيين (تجاه الإسرائيليين اليهود)، مع الإشارة إلى أن النسبة الأعلى من التنميط السلبي تجاه الآخر وردت لدى مجموعة الأولاد الإسرائيليين اليهود تليها مجموعة الأولاد الفلسطينيين وكانت النسبة الأدنى لدى مجموعة الأولاد الإسرائيليين العرب. هذا وأشارت نتائج البحث إلى أن نسب التنميط السلبي تجاه الآخر تستمر في التزايد مع التقدم بالسن لدى أولاد مجموعتي الإسرائيليين اليهود والفلسطينيين ويربط الباحثون ذلك بتفاقم العنف الإثني-السياسي في المنطقة الذي من شأنه تضخيم النزاع بين "النحن" و"الهم". أما بالنسبة إلى مجموعة الأولاد الإسرائيليين العرب فلقد أشارت نتائج الدراسة إلى انخفاض نسبة التنميط السلبي تجاه الإسرائيليين اليهود مع التقدم في السن. ويربط نيوا وآخرون هذا المنحى بعدة أمور أهمها فرص الاحتكاك المتاحة في الحياة الاجتماعية اليومية (المدرسة، السوق، مكان العمل، إلخ.) بين الإسرائيليين العرب والإسرائيليين اليهود التي من شأنها تخفيض نسبة التحيز بين المجموعتين وفق طرح ألبورت (Allport, 1954) بأن الاحتكاك بين مجموعتين (أكثرية وأقلية) يساهم في تخفيض التمييز العنصري بينهما. يقول نيوا وآخرون أن فرص التواصل والتعامل مع "الآخر" في ميادين مختلفة من الحياة اليومية سمحت للإسرائيليين العرب الفصل بين أعمال العنف الإثني-السياسي وقدرة الإسرائيلي اليهودي على التصرف بطريقة إنسانية (زميل في الدراسة أو العمل أو في أي نوع من الظروف الاجتماعية الاعتيادية) بينما تغيب هذه الفرص بالنسبة للفلسطينيين الذين تقتصر علاقتهم بالإسرائيليين على الاحتكاك معهم على الحواجز ونقاط التفتيش العسكرية.

يبين بار-تال (Bar-Tal, 1996) في مراجعته لعدة دراسات أجريت على أطفال إسرائيليين يهود في سن الحضانة والدراسة الابتدائية للكشف عن عملية اكتسابهم للأنماط الاجتماعية stereotypes المرتبطة بمفهوم "العرب" أن هذا المفهوم يكتسب في عمر مبكر (بدءا من العام الثاني) وأنه من أول المفاهيم الاجتماعية التي يكتسبها الطفل الإسرائيلي في إطار عملية التصنيف الاجتماعي. يرى بار-تال أن مفهوم "العرب" يتكون بتأثير مباشر للأهل، للحضانة كما للمعلومات المستقاة من التلفزيون. في إحدى هذه الدراسات، عندما سئل الأطفال "ماذا تعرفون عن العرب"، أعطى 71% من الأطفال إجابات متعلقة بالحرب أو بالإرهاب أو بكليهما. في دراسة مرتبطة أخرى (تتراوح أعمار الأطفال بين السنتين والنصف والست سنوات)، عندما طلب من الأطفال مطابقة لائحة من الأوصاف المضادة (جيد/سيئ، نظيف/وسخ، جميل/قبيح وقوي/ضعيف) بمجموعة من الصور لأشخاص مختلفين (رجل يرتدي العباءة والكوفية ولديه لحية وشاربان، رجل لديه لحية وشاربان لكنه يرتدي قميصا وبنطالا، رجل أشقر الشعر مع ملامح أوروبية، إلخ.)، أعطى حوالي 80% من الأطفال الذين كان لديهم معرفة بمفهوم "العرب" أوصافا سلبية فقط للصور الموحية "بالرجل العربي"، بينما أعطى فقط 8% منهم أوصافا حيادية، ولم يعط أي من الأطفال أوصافا إيجابية. في الدراسة عينها، قال حوالي 69% من الأطفال أنه يجب "قتل" أو "ضرب" أو "وضع العربي في السجن" ردا على السؤال حول ما يجب فعله بالرجل العربي، بينما قال حوالي 19.5% منهم أنه يجب "التودد إليه" أو "أنه يجب أن يعيش حياة جيدة". في كلتا الدراستين، يشير بار-تال إلى ازدياد التقييم السلبي للعرب وانخفاض الرغبة في التواصل مع العرب مع التقدم في السن بشكل ملحوظ. وفي دراسة ثالثة أجريت على مجموعة من الأولاد شمالي مدينة تل-أبيب تتراوح أعمارهم بين 9 و12 عاما، عندما طلب منهم ما إذا كان هناك نوع واحد أو عدة أنواع من العرب، أجابت الأكثرية أن هناك "العرب الجيدون" الذين يبدون مواقف إيجابية تجاه إسرائيل، و"العرب السيئون" الذين يبدون مواقف سلبية تجاه إسرائيل. يستنتج بار-تال من هذه الدراسات أنه مع التقدم في السن (بين 10 و12 عام) تتخذ نظرة الولد اليهودي الإسرائيلي تجاه العرب أبعادا متعددة مقارنة بالبعد الأحادي الذي تتسم به نظرته تجاه العرب في السنوات المبكرة (بين 3 و7 سنوات).

مناقشة نتائج الدراسات السابقة

لقد اعتمدنا على منظورين مختلفين هما "النظرية المعرفية-النمائية" و"نظرية الهوية الاجتماعية" للإجابة على سؤال ما إذا كانت الذهنية المتطرفة استثناء في النمط التفكيري للفرد، أم هل أنها تمثل نمطا نمائيا

طبيعيا لدى الإنسان الاعتيادي. لجأنا إلى الدراسات والأبحاث التي تناولت مرحلة الطفولة (الطفولة المبكرة ومرحلة التعليم الإبتدائي) والتي بينت بوضوح أن مكونات التفكير المتطرف (المحاباة لمجموعة الانتماء والتصنيف الاجتماعي للآخر والتنميط والتمييز وتحقير الآخر) متواجدة في العمليات النفسية-المعرفية التي يختبرها الطفل في مرحلة تكوين الهوية الاجتماعية (المبنية على بناء "صورة الذات" و"النظرة إلى الآخر"). ولقد استطعنا من خلال مراجعتنا للنتائج التي توصلت إليها هذه الدراسات التأكيد على تخميننا الرئيسي وهو أن الذهنية المتطرفة قد تكون غير استثنائية بل هي متأصلة في عملية نمو الهوية الاجتماعية وذلك ابتداء من عمر مبكر، بغض النظر عن العوامل البيئية المحيطة.

أما بالنسبة للدراسات المنطوية تحت "نظرية الهوية الاجتماعية"، فإن النتائج تشير إلى أن عمليتي المحاباة لمجموعة الانتماء والتعصب تجاه المجموعة لا تشكلان مسارا نمائيا واحدا بل كشفت عن مسارين منفصلين بحيث أن المحاباة لمجموعة الانتماء (حيث يدرك الطفل أنه ينتمي إلى "صنف" معين من "الأصناف الاجتماعية" الموجودة في محيطه) لا تؤدي تلقائيا أو حتما إلى العداء تجاه المجموعات الأخرى، بالرغم من أن الطفل قد يفضل مجموعته على المجموعات الأخرى (عملية المقارنة الاجتماعية). إن الانتقال إلى مرحلة أو وضعية التعصب ضد الآخر وتنميطه سلبيا وتحقيره قد لا يتم، وإذا تم فهناك ظروف قد تؤدي إلى ذلك ومنها مدى ونوعية محاباة الطفل لمجموعة انتمائه، وما إذا كان التعصب قاعدة ضمنية من قواعد مجموعة الانتماء، وما إذا كانت مجموعة الانتماء تشعر بالتهديد (الجسدي أو المعنوي) حيال المجموعة العرقية أو الإثنية الأخرى (Brewer, 1999; Nesdale et al. 2005).

تكمن أهمية هذه الدراسات والأبحاث في تبيان أنه بالرغم من أن للتطرف جذور معرفية وعاطفية تتجلى في عمر مبكر جدا من خلال عملية تكوين الهوية الاجتماعية (صورة الذات والنظرة إلى الآخر)، إلا أنه من غير المحتم أن يكمل مساره بشكل تصاعدي وذلك بسبب (1) نمو القدرات المعرفية حيث يبدأ الطفل حوالي عامه السابع بإدراك أوجه التشابه والفروقات ضمن المجموعة الواحدة وبين المجموعات المختلفة ("إن ما يشبهني جيد وقد يكون سيئا، وما لا يشبهني جيد وقد يكون سيئا") فتفقد عملية الانشطار بين "النحن" و"الهم" شيئا من حدتها، أو بسبب (2) فرص الاحتكاك في الحياة الاجتماعية اليومية المتاحة لأفراد المجموعتين (مجموعة الانتماء والمجموعة الأخرى) والتي من شأنها تخفيض نسبة التعصب والعداء بينهما.

لا بد إذن من التسليم بأن الذهنية المتطرفة متواجدة في ذهنية الإنسان بشكل شبه جوهري وبدائي منذ الطفولة المبكرة، فالتطرف في تفضيل مجموعة الانتماء ("النحن") على غيرها من المجموعات ("الهم") أمر طبيعي نمائي وتلقائي يلبي حاجة الإنسان الغريزية للانتماء ويساعده على تحفيز تقديره الذاتي، إنما التطرف ضد المجموعة الأخرى ("الآخر") بالرغم من أنه أمر طبيعي نمائي بفعل عمليات المقارنة الاجتماعية التي تلبي حاجة الإنسان البديهية للتميز والتفوق على الآخرين، غير أنه غير تلقائي ويستوجب ظروف بنيوية وتحفيزية اجتماعية إضافية غير متأصلة في عملية تكوين المجموعة بحد ذاتها (Brewer, 2001). هذا ويرى كامرون وآخرون (Cameron et al., 2001) أن التعصب ضد الآخر ينشأ نتيجة التفاعل بين التغيرات النمائية الشخصية والعوامل الاجتماعية المحيطة بالطفل التي تؤدي إلى اعتبار مجموعة الانتماء "جيدة" والمجموعة الأخرى "سيئة"، وتشمل هذه العوامل تأثير الأهل العنصريين أو ما يتعرض له في المدرسة أو ما يصوره الإعلام أو وجود حالة نزاع مع دولة أخرى (العدو).

نحو الوقاية من التفكير المتطرف

بناء على النتائج المنبثقة من مجموعة الأبحاث العلمية في نشأة التفكير المتطرف، نستخلص أن أية مبادرة للوقاية من التفكير المتطرف يجب أن تستهدف الأطفال الصغار، أي في مرحلة ما قبل الدراسة. لقد بينت كل الأبحاث التي تناولتها دراستنا أن المحاباة لمجموعة الانتماء تبدأ في عمر مبكر (بين سنتين وثلاث سنوات) وهي مكون نمائي طبيعي ضمن عملية تكوين الهوية الاجتماعية (بناء الصورة الذاتية والنظرة إلى الآخر)، بل دافع جوهري ومتأصل في نمو الطفل المعرفي-النفسي الطبيعي. يتميز الأطفال في هذه المرحلة بدرجة عالية من المركزية الأنوية ولا يمتلكون المهارات الذهنية المطلوبة للنظر إلى الآخرين كأفراد، فيفرطون في إبراز الفروقات بين المجموعات. تلعب العوامل المحيطة بالطفل (تربية الوالدين، تأثير المدرسة والأتراب، ما تقدمه وسائل الإعلام والكتب التي يقرأها الطفل الصغير، إلخ) في هذه المرحلة بالذات دورا مصيريا في بلورة الصور المنمطة عن "الآخر المختلف" أو عدم بلورتها، أو بلورة صور مختلفة (حيادية أو إيجابية) عن الآخر. لذلك فإن التأسيس

للفكر اللامتطرف واللامتعصب واللاتمييزي يجب أن يبدأ في هذه المرحلة المبكرة من نمو الطفل العقلي. وعند بلوغ الطفل عامه السابع أو الثامن (أي بلوغه "مرحلة العمليات الملموسة" في لغة "بياجيه"، ومع ترسيخ عملية "المحافظة" والتفكير الانعكاسي، يكتسب الطفل المرونة الذهنية اللازمة ليدرك أن "ما يشبهني جيد وقد يكون سيئا، وما لا يشبهني جيد وقد يكون سيئا".

إن تشجيع التفكير النقيض للتفكير المتطرف يجب أن يتم خلال مرحلة الطفولة بدل الانتظار لبلوغ الأولاد سن المراهقة للمبادرة في تطبيق برامج مكافحة التطرف بحجة أنهم بلغوا النضج المعرفي المطلوب لاستيعاب هذه البرامج. تحثنا نتائج هذه الدراسات على استدراك أهمية مرحلة الطفولة في تطور الذهنية المتطرفة واعتبارها المرحلة ذات الأولوية، قبل مرحلة المراهقة، للتدريب على التفكير الناقد والمستقل من خلال المبادرات التربوية-النفسية في المدرسة كما في البيئة المنزلية. إن التفكير الناقد المستقل هو نقيض التفكير المتطرف إذ أنه يساهم إلى حد كبير في تحفيز الانفتاح وتقبل الاختلاف والتحاور الثقافي والمناقشة البناءة لمد جسور التواصل بدلا من توسيع الفجوة بين "النحن" و"الهم".

خلاصة

تؤكد الدراسات أن التعصب موجود بوضوح في الطفولة المبكرة (بدءا من العام الثالث) وهو يعود إلى نظرية الطفل الخاصة بالعالم أن "ما يشبهني جيد وما لا يشبهني سيء"، وهي مبنية على عملية المحاباة لمجموعة الانتماء التي تواكبها عملية نبذ الآخر (المجموعة الأخرى). يرى الباحثون أن هذه العملية التصنيفية للذات وللآخر ضرورية لفهم العالم في هذه المرحلة المبكرة من العمر. هذا ومع نمو المرونة الذهنية ابتداء من عمر السبع سنوات، يصبح الطفل أكثر إدراكا لأوجه التشابه كما لأوجه التباين بين مجموعته والمجموعات الأخرى، فتتدنى درجة التعصب حيال الآخر المختلف. ذلك لا يعني أن المحاباة لمجموعة الانتماء تتبع المسار ذاته، بل هي تترسخ في ذهنية الطفل وتشكل مرجعية صلبة له وتؤثر على مواقفه وتوجه سلوكه حيال الآخرين: فمثلا، يظهر الأطفال بين السبعة والتسعة أعوام مواقف إيجابية تجاه أطفال المجموعة الأخرى إذا كانت مجموعة الانتماء تدعو إلى التقبل والاندماج بعكس ما إذا كانت تدعو الى النبذ والتفرقة. لذلك يجب تسليط الضوء على نوعية البيئة- أي مجموعة الانتماء - التي يترعرع فيها الطفل الصغير (البيت والحضانة)، فمقارنة بأطفال الأمس الذين لم يختبروا الاحتكاك العرقي والإثني في بيئتهم كما يختبره أطفال اليوم نتيجة تدفق اللاجئين من جنسيات مختلفة وانخراطهم في البيئات المحلية، إن طفل اليوم يبدو أكثر إدراكا للتغيرات في النسيج الاجتماعي (العرقي) المحيط بهم. مما يعني أن فرص الاحتكاك مع الآخر المختلف أصبحت متوفرة على مستوى الأمور البسيطة من حياة الطفل اليومية، أي على مقاعد الحضانة والمدرسة. وتلاؤما مع نظرية "البورت" بأن الاحتكاك بين مجموعتين يساهم في تخفيض التمييز والتعصب بينهما، وبناء على الدراسات الإمبيريقية التي أكدت على أن الأطفال الذين ينشؤون في بيئة مختلطة عرقيا يبدون نسبة أدنى من التعصب السلبي تجاه المجموعات العرقية الأخرى مقارنة بأطفال البيئات المتجانسة عرقيا، يتبين أن السعي لبناء بيئة متسامحة ترسخ قيم المساواة وتقبل الآخر في اختلافه وتنوعه في المرحلة العمرية المبكرة هو المفتاح لدرء التفكير المتطرف في ذهنية الطفل الصغير، على أن تكون مجموعة الانتماء التي يتحابى بها قائمة على خصائص نقيضة للفكر المتطرف، وذلك من خلال تقديم الفرص للاتصال والاحتكاك بالآخر عبر نشاطات تتلاءم مع عمر الطفل وقدراته الفكرية واللغوية والعاطفية والجسدية.

المراجع

- بريك، صالح (2010). الملامح السيكولوجية للكره والاختلاف. مجلة شبكة العلوم النفسية العربية، 25-26، 21-30.
- بوخميس، ب (2010). التطرّف والإنحراف: مقاربة نفسية-اجتماعية. مجلة شبكة العلوم النفسية العربية، 25-26، 46-50.
- جابر، أ. م. (2010). البنية النفسية للفاشية والشخصية التسلطية. مجلة شبكة العلوم النفسية العربية، 25-26، 57-62.

- حجازي، م. (1989). التخلف الاجتماعي: مدخل الى سيكولوجية الانسان المقهور (ط.9). المغرب: المركز الثقافي العربي.
- خربوش، عبد الودود (2010). سيكولوجية المتطرّف الانتحاري. مجلة شبكة العلوم النفسية العربية، 25-26، 31 -35.
- رضوان، س. (2010). سيكولوجية التطرّف العقائدي: الافتتاحية. مجلة شبكة العلوم النفسية العربية (25-26)، 6-8.
- السباعي، خ. (2011). الاتجاهات المتصلبة كنمط للعلاقة مع الآخر. مجلة شبكة العلوم النفسية العربية (29-30) 12-21.
- الشهري، ف. بن عبد الله (2012). ثقافة التطرف والعنف على شبكة الانترنت: الملامح والاتجاهات. "استعمال الانترنت في تمويل الارهاب وتجنيد الارهابيين" (ندوة علمية)، 525، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، 9-2011/5/11، 3-47.
- صالح، ق. أ. (2010). ملامح سيكولوجية التعصّب. مجلة شبكة العلوم النفسية العربية، 25-26، 63-66.
- Aboud, F. E. (2003). The formation of in-group favoritism and out-group prejudice in young children: Are they distinct attitudes? Developmental Psychology, 39 (1): 48-60. doi: 10.1037/0012-1649.39.1.48
- Aboud, F. E. (2005). The development of prejudice in childhood and adolescence. In J. F. Dovidio, P. Glick, & L. Rudman (Eds.), On the nature of prejudice: Fifty years after Allport, pp. 310-326, Oxford: Blackwell Publishing Ltd.
- Abrams, D., Rutland, A., Cameron, L., & Marques, J.M. (2003). The development of subjective group dynamics: When in-group bias gets specific. British Journal of Developmental Psychology, 21, 155-176.
- Abrams, D., Rutland, A., Cameron, L., & Ferrell, J. (2007). Older but Wilier: In-Group Accountability and the Development of Subjective Group Dynamics. Developmental Psychology, 43 (1), 134-148. doi: 10.1037/0012-1649.43.1.134
- Ajdukovic, D., & Corkalo Biruski, D. (2008). Caught between the ethnic sides: Children growing up in a divided post-war community. International Journal of Behavioral Development, 32 (4), 337-347. doi: 10.1177/0165025408090975
- Allport, G.W. (1954). The nature of prejudice. Reading, MA: Addison-Wesley Company. Retrieved from: https://ia800601.us.archive.org/31/items/TheNatureOfPrejudice/The%20Nature%20of%20Prejudice.pdf
- Al Raffie, D. (2013). Social identity theory for investigating Islamic extremism in the diaspora. Journal of Strategic Security, 6 (4), 67-91. Retrieved from: http://dx.doi.org/10.5038/1944-0472.6.4.4
- Augoustinos, M., & Rosewarne, D.L. (2001). Stereotype knowledge and prejudice in children. British Journal of Developmental Psychology, 19, 143-156
- Bakker, E., & Kessels, E. (2012). The OSCE's efforts to counter violent extremism and radicalization that lead to terrorism: A comprehensive approach addressing root causes? Security and Human Rights, 2, 89-99. Retrieved from: https://www.shrmonitor.org/assets/uploads/2017/09/Bakker-en-Kessels-v2.pdf
- Bar-Tal, D. (1996). Development of social categories and stereotypes in early childhood: The case of "the Arab" concept formation, stereotype and attitudes by Jewish children in Israel. International Journal of Intercultural Relations, 20 (3/4), 341-370.
- Barrett, M., & Oppenheimer, L. (2011). Findings, theories and methods in the study of children's national identifications and national attitudes. European Journal of Developmental Psychology, 8 (1), 5-24. doi.org/10.1080/17405629.2010.533955

- Bartlett, J., & Miller, C. (2012). The edge of violence: Towards telling the difference between violent and non-violent radicalization. Terrorism and Political Violence, 24 (1), 1-21
- Bennett, M., Barrett, M., Karakozov, R., Kipiani, G., Lyons, E., Pavlenko, V., & Riazanova, T. (2004). Young children's evaluations of the ingroup and of outgroups: A multi-national study. Social Development, 13 (1), 124-141. https://doi.org/10.1046/j.1467-9507.2004.00260.x
- Brewer, M. B. (1979). In-group bias in the minimal intergroup situation: A cognitive-motivational analysis. Psychological Bulletin, 86 (2), 307–324.
- Brewer, M.B. (1999). The psychology of prejudice: Ingroup love or outgroup hate? Journal of Social Issues, 55 (3), 429-444.
- Brewer, M.B. (2001). Ingroup identification and intergroup conflict: When does ingroup love become outgroup hate? In R. Ashmore, L. Jussim & D. Wilder (Eds), Rutgers series on self and social identity; Vol. 3. Social identity, intergroup conflict, and conflict reduction (pp. 17–41). Oxford University Press. Retrieved from: https://epdf.pub/social-identity-intergroup-conflict-and-conflict-reduction-rutgers-series-on-sel.html
- Cameron, L., Rutland, A., Turner, R., Holman-Nicolas, R., & Powell, C. (2001). Changing attitudes with a little imagination: Imagined contact effects on young children's intergroup bias. Anales de Psicología, 27 (3), Special Issue "Prejudice: Socio-developmental perspectives", 708-717.
- Clark, K.B., & Clark, M.P. (1939). The development of consciousness of self and the emergence of racial identification in Negro preschool children. The Journal of Social Psychology, 10 (4), 591-599. doi: 10.1080/00224545.1939.9713394
- Coleman, P.T., & Bartoli, A. (2015). Addressing extremism (White Paper). New York: The International Center for Cooperation and Conflict Resolution (ICCR), Columbia University. Retrieved from: http://www.libertyunderattack.com/wp-content/uploads/2015/06/Addressing- Extremism-ICCCR-ICAR.pdf
- Davis, S.C., Leman, P.J., & Barrett, M. (2007). Children's implicit and explicit ethnic group attitudes, ethnic group identification, and self-esteem. International Journal of Behavioral Development, 31 (5), 514-525.
- Enesco, I., Navarro, A., Paradela, I., & Guerrero, S. (2005). Stereotypes and beliefs about different ethnic groups in Spain: A study with Spanish and Latin American children living in Madrid. Applied Developmental Psychology, 26 (6), 638–659. doi: 10.1016/j.appdev.2005.08.009
- Fitzroy, S., & Rutland, A. (2010). Learning to control ethnic intergroup bias in childhood. European Journal of Social Psychology, 40 (4), 679–693. doi: 10.1002/ejsp.746
- Guerrero, S., Enesco, I., & Lam, V. (2011). Racial awareness, affect and sorting abilities: A study with preschool children. Anales de Psicología, 27 (3), 639-646.
- Levy, S. R., Rosenthal, L., & Herrera-Alcazar, A. (2010). Racial and ethnic prejudice among children. In J. L. Chin (Ed.), The Psychology of prejudice and discrimination, pp. 37-49, Santa Barbara, California: Praeger.
- Loza, W. (2007). The psychology of extremism and terrorism: A Middle-Eastern perspective. Aggression and Violent Behavior, 12, 141–155.
- Monteiro, M.B., De França, D. X., & Rodrigues, R. (2009). The development of intergroup bias in childhood: How social norms can shape children's racial behaviors. International Journal of Psychology, 44 (1), 29-31. https://doi.org/10.1080/00207590802057910

- Nesdale, D. (2000). Developmental changes in children's ethnic preferences and social cognitions. Journal of Applied Developmental Psychology, 20 (4), 501-519. doi.org/10.1016/S0193-3973 (99) 00012-X
- Nesdale, D., Durkin, K., Maass, A., Kiesner, J., Griffiths, J., Daly, J., & McKenzie, D. (2010). Peer group rejection and children's outgroup prejudice. Journal of Applied Developmental Psychology, 31(2), 134-144. https://doi.org/10.1016/j.appdev.2009.11.004
- Nesdale, D., & Flesser, D. (2001). Social identity and the development of children's group attitudes. Child Development, 72 (2), 506-517. https://doi.org/10.1111/1467-8624.00293
- Nesdale, D., Maass, A., Durkin, K., & Griffiths, J. (2005). Group norms, threat, and children's racial prejudice. Child Development, 76 (3), 652 - 663. https://doi.org/10.1111/j.1467-8624.2005.00869.x
- Niwa, E. Y., Boxer, P., Dubow, E.F., Rowell Huesmann, L., Landau, S., Yezreel, E., Shikaki, K., & Dvir Gvirsman, S. (2016). Negative stereotypes of ethnic out-groups: A longitudinal examination among Palestinian, Israeli Jewish, and Israeli Arab youth. Journal of Research on Adolescence, 26 (1), 166-179. doi:10.1111/jora.12180
- Pauker, K., Ambady, N., & Apfelbaum, E.P. (2010). Race salience and essentialist thinking in racial stereotype development. Child Development, 81 (6), 1799-1813. doi: 10.1111/j.1467-8624.2010.01511.x
- Piaget, J., & Weil, A.M. (1951). The development in children of the idea of the homeland and of relations to other countries. International Social Science Journal, III (3), 561-578. Retrieved from: https://unesdoc.unesco.org/ark:/48223/pf0000059379
- Pirchio, S., Passiatore, Y., Carrus, G., Maricchiolo, F., Taeschner, T., & Arcidiacono, F. (2017). Teachers and parents' involvement for a good school experience of native and immigrant children. Journal of Educational, Cultural and Psychological Studies, 15, 73-94. doi: http://dx.doi.org/10.7358/ecps-2017-015-pirc
- Rutland, A. (1999). The development of national prejudice, in-group favouritism and self-stereotypes in British children. British Journal of Social Psychology, 38 (1), 55-70.
- Rutland, A., Cameron, L., Bennett, L., & Ferrell, J. (2005). Interracial contact and racial constancy: A multi-site study of racial intergroup bias in 3-5-year-old Anglo-British children. Applied Developmental Psychology, 26 (6), 699-713. doi: 10.1016/j.appdev.2005.08.005
- Saucier, G., Akers, L.G., Shen-Miller, S., Knezevic, G., & Stankov, L. (2009), Patterns of thinking in militant extremism. Perspectives on Psychological Science, 4 (3), 256-271. doi: 10.1111/j.1745-6924.2009. 01123.x
- Stankov, L., Saucier, G., & Knežević, G. (2010). Militant extremist mind-set: Proviolence, vile world, and divine power. Psychological Assessment, 22 (1), 70-86. doi: 10.1037/a0016925
- Trip, S., Bora, C. H., Marian, M., Halmajan, A., & Drugas, M.I. (2019). Psychological mechanisms involved in radicalization and extremism: A rational emotive behavioral conceptualization. Frontiers in Psychology, 10, Article 437. doi: 10.389/fpsyg.2019.00437
- Williams, A., & Steele, J.R. (2017). Examining children's implicit racial attitudes using exemplar and category-based measures. Child Development, 90 (3), e322-e338. doi: 10.1111/cdev.12991